

النظرة الإجتماعية في رواية اللصّ والكلاب

على كنجيان خنارى*

تاريخ الوصول: ٩١/٩/٣

محبوبه بادرستانى**

تاريخ القبول: ٩٢/٢/٥

الملخص

إنّ اللصّ والكلاب هي الرواية الثانية لنجيب محفوظ في فترة الستينات، وقد أصدرها بعد «أولاد حارتنا» عام ١٩٦١ م، فلذا تعتبر من الروايات الرمزية التي أنكر الكاتب من خلالها النظام الجمهورى، وأكد على حضور السلطة في المجتمع المصرى. وإنها تصوير حى من البلاد التي يسود فيها الظلم، بدل العدالة، وفي الحقيقة العدالة فيها مغمورة، وقد أراد نجيب محفوظ أن يخاطب من خلالها الزعماء الاشتراكيين: أنتم دعوتم الشعب إلى الانتفاضات، والتمردات ثم نسيتم أنفسكم، أنتم خائنون، وهذا النظام هو نظام السلطة، وليس نظاماً جمهورياً. إنّ الكاتب، والأديب الكبير نجيب محفوظ بالإشارة إلى القضايا هذه يطعن في سلوك الحكام، والزعماء بطرق غير مباشرة، منها المجتمع المصرى، والدين، والمرأة ثم يقدمها بصورة رواية، وهي «الّصّ والكلاب». يتناول هذا المقال دراسة المضامين المذكورة، بالإضافة إلى دراستها من حيث الشكل.

الكلمات الدليلية: نجيب محفوظ، اللصّ والكلاب، سعيد مهران، الشخصية، الرواية.

المقدمة

لقد مرّت الرواية عند نجيب محفوظ بمراحل مختلفة، أبرزها التاريخية، والاجتماعية، ثم الفلسفية. وتقع «اللصّ والكلاب» في المرحلة الثالثة من مراحل تطور الفن الروائي عند نجيب محفوظ، حيث كتبها سنة ١٩٦١ م بعد إصدار «أولاد حارتنا» عام ١٩٦٠ م وإنها عبارة عن مواجهة وتنازع بين الفرد ومجتمعه، أو الصراع بين اللصّ والكلاب، أو سعيد مهران والمجتمع.

لقد دار حول «اللصّ والكلاب» نقاش بين الناقدین إذ يعتقد بعضهم بأنها رواية، وبعضهم يرون أنها أقصوصة؛ والحقيقة أنها همزة وصل بين الأقصوصة، والرواية حيث امتزجت فيها خصائص الأقصوصة مع خصائص الرواية، ونجيب محفوظ يؤكد على هذا الرأي قائلاً: «اللصّ والكلاب رواية قصيرة أو أقصوصة طويلة، ومن هنا جاء اختلافها الطبيعي عن بقية الروايات» (محفوظ، ٢٠٠٦ م: ٢٠٠).

الشخصية في اللصّ والكلاب

يستخدم الروائي في تكوين روايته، وتقديمها إلى القارئ شخصيات رئيسة، وأخرى ثانوية، والشخصية الرئيسة تلعب دوراً هاماً في القصة، إذ يمكن القول إن بناء القصة عليها، وعادةً موضوع القصة يدور حولها وتشغل الشخصيات الثانوية أيضاً دوراً هاماً في توضيح القصة. يلجأ نجيب محفوظ في «اللصّ والكلاب» إلى الرمز وينتقى شخصياته كأدوات جزئية صغيرة للتعبير عن أفكار واسعة. والشخصيات في «اللصّ والكلاب» هي سعيد مهران، رؤوف علوان، نبوية سليمان، عليش سدره، سناء، الشيخ على الجنيدى، نور، معلم طرزان، معلم بياضه، المخبر حسب الله، عم مهران والد سعيد، شعبان حسين، و... وهم من الشخصيات المعروفة في هويتها في حين أنّ بعض الأشخاص في الرواية دون الاسم، وهم أشخاص غير معروفين مثل بواب رؤوف علوان، والدة سعيد مهران، بائع الجرائد، الشخصيات في القهوة، وصبي القهوة.

إنّ سعيد مهران شخصية قد تعاملت في مسيرة حياتها مع الأشخاص الذين يطلق الكاتب عليهم لفظ (الكلاب) الذين جرّوها أخيراً إلى المستنقع الذي لم تستطع أن تتخلص منه، وعاشت تماماً في الظلمة التي هيأتها الكلاب، وماتت فيها. وهم ليسوا إلا رؤوف علوان،

وعليش سدره، ونبوية سليمان، وابنته سناء. وهؤلاء يعتبرون الأشخاص الثانوية بالمقارنة إلى شخصية سعيد مهران.

أما من حيث تصنيف الشخصيات فيمكن القول إن الشخصية: «إما مسطحة وهي لا تتأثر بالأحداث، ولا تتغير بتغييرها، ولا تؤثر فيها حوادث القصة، وتكون في نهاية القصة كما كانت في بدايتها؛ وإما نامية فهي تتكشف تدريجياً خلال القصة، وتتطور حوادثها، ويكون نتيجة لتفاعلها المستمر مع الحوادث، ويتحول طابع من عقائد الشخصيات أو أيديولوجيتها» (ميرصادقي، ١٣٨٠ ش: ٩٤-٦٣).

كل الشخصيات في «الّصّ والكلاب» تعدّ من الشخصيات المسطحة إلا (سعيد مهران، ورؤوف علوان، ونبوية سليمان). كما كان سعيد مهران في ماضيه لصاً ثائراً فيتحول إلى الفوضوى في محاولته لقتل رؤوف علوان وعليش سدره. ونرى نجيب محفوظ في ترسيم شخصياته يعمل بدقة، ومهارة، وحينما يبادر به يراعى البعد الخارجى حيث يستطيع القارئ تصوّرها كما يشير إلى المظاهر الجسدية في سعيد مهران هكذا: «بدا سعيد، وهو يتابعه بعينيه البراقطين، وجسمه النحيل القوى كأنه نمر يتربص بنيل» (محفوظ، ١٩٧٣ م: ١٣)، «رغم العينين اللوزيتين، والوجه المستطيل، والأنف الأقبى الطويل» (المصدر نفسه: ١٧) ومن خلال الأوصاف الخارجية للشخصيات، ومعرفة حياتهم يمكن الحدس في أحوالهم الفكرية، والنفسية كما أن حول شخصية «نور» في الرواية يمكن القول من الصفات الخارجية التي قدّمها نجيب محفوظ لهذه المرأة، ويمكن من خلالها معرفة أحوالها النفسية بطرق غير مباشرة، كامرأة غير محترمة، وذات الجسد الآثم.

أسماء الشخصيات ودلالاتها

إنّ الأسماء التي يختارها نجيب محفوظ لشخصياته في الروايات لها دلالة خاصة في الأغلب، ترمز إلى فكرة معينة أو مفهوم محدّد. واختيار الأسماء غالباً ما يرجع إلى الشخصية الواقعية كما أن الشخصية الرئيسية في «الّصّ والكلاب» مستمدة من الشخصية الواقعية، وهي محمود أمين سليمان. أما بالنسبة للشخصيات الأخرى، فيبدو أنها ليست واقعية لكن اختيار أسمائها، يرمز إلى مفاهيم محدّدة ثم إنّها مستمدة من الواقع الذي يعيش نجيب محفوظ، وإن لم يكن مستمدة من واقع بعينه.

وهناك تضاد بين بعض الأسماء، ومسمياتها كما هو الأمر بالنسبة لسعيد مهران؛ فإنه لم يكن سعيداً بل كان يعاني من مشاكل كثيرة. وإلى نهاية الرواية يلاحظ التضاد، وبعض الأحيان يلاحظ التناسب من حيث الاسم والمسمى، كما أن هذا الأمر يلاحظ في اسم سناء. إن هذا الاسم بمعنى الضوء، واللمعان حقيقةً، وتمثل الضوء في قلب سعيد مهران، حيث يحبها من أعماق قلبه.

الأحداث

ينقل نجيب محفوظ الأحداث في «اللصّ والكلاب» إلى القارئ من خلال الصراع بين الشخصية الرئيسية، والكلاب، وهذا الغضب الباطني من ناحية سعيد مهران في الحقيقة انعكاس تجاه عمل الكلاب أي (الخونة) فمن ثمّ يدرك هذا التعريف جيداً، أنّ «الحدث هو الفعل أو الحادثة التي تُشكّلها حركة الشخصيات لتقدم في النهاية تجربة إنسانية ذات دلالة معينة» (القضاة، ٢٠٠٠ م: ٦٩) وعلى هذا الأساس يمكن القول إن الشخصية هي الفاعل، والحدث هو الفعل. وفي المجموع الأحداث في «اللصّ والكلاب» معدودة.

المكان

«إنّ المكان من عناصر البناء القصصي الذي تدور فيه الأحداث، وتتحرك الشخصيات؛ فكل حادثة لابدّ أن تقع في مكان معين، وترتبط بظروف، وعادات، ومبادئ عند نجيب محفوظ واقع ملموس في جميع رواياته، وقد احتلت القاهرة بأحياءها، وحراراتها، وأزقتها، وشوارعها مركز الصدارة لوقوع أحداث رواياته» (القضاة، ٢٠٠٠ م: ٢٠).

كما أن العلاقة المكانية في «اللصّ والكلاب» أيضاً بارزٌ، ولم يتخل الكاتب عن ذكر أحياء مثل العباسية، لأن هذه المنطقة محبوبة عنده، ويلاحظ في الرواية ذكر صحراء العباسية مكرراً. وفي جزئيات المكان يمكن تقسيمه إلى المكان المغلق، والمكان المفتوح في الرواية كما يمكن الإشارة إليها في اللصّ والكلاب نحو السجن، والشقة كالأماكن المغلقة، وعطفة الصيرفي، والمقبرة كالأماكن المفتوحة.

الزمان

الزمان أيضاً مثل المكان عنصر جوهري فى العمل الروائى، ويستعمله نجيب محفوظ كتكنيك حديث فى رواياته، ويعتبره تبلور فى أعمال كان هو الطابع الخاص بها مثل «الّصّ والكلاب»، ويستعمل التكنيك الحديث فى لحظات مناسبة. حالة سيربالية .. حالة مونولوج، ويلاحظ القارئ أن البطل فى «الّصّ والكلاب» (سعيد مهران) يعيش فى ماضيه كثيراً، ولن ينساه، وهو فى لحظة واحدة يعود إلى المنصرم، ويغرق فى أعماق نفسه، وفى الحقيقة على هذا النحو يهتم نجيب محفوظ بالاسترجاع فى إنتاجه.

السرد والحوار

إنّ القصة الواحدة يمكن أن تحكى بطرق متعددة، والطريقة التى تحكى بها تلك القصة تسمى السرد. فالسرد هو الكيفية التى تروى بها القصة أو الرواية عن طريق هذا الشكل. قد يعتمد الروائى فى إنتاجه على السرد فقط دون الحوار غير أنه لا يمكن أن يعتمد على الحوار وحده دون السرد كما قد جمع نجيب محفوظ فى أسلوبه الروائى بين الطريقتين، أى السرد والحوار معاً. إنّ فى «الّصّ والكلاب» يروى الكاتب الحكاية من وجهة نظر البطل (سعيد مهران) ويقدم بالتالى الشخصيات الأخرى المحيطة به فى الرواية كما يراهم، ويسمى هذا النوع من السرد (العالم الكل)، مثل هذه العبارة «هذا هو رؤوف علوان، الحقيقة العارية، جثة عفنة لا يوارىها التراب» (محفوظ، ١٩٧٣ م: ٤٧) فهذا الوصف من وجهة نظر سعيد مهران، وهكذا يصف الراوى رؤوف علوان على لسان البطل.

«من استقراء روايات نجيب محفوظ، لوحظ أن الشخصيات الرئيسية تتداولها ثلاثة ضمائر أساسية هى: «الغائب: هو»، و «المخاطب: أنت»، و «المتكلم: أنا» (عثمان، لاتا: ٢٤٠). كما يبدأ نجيب محفوظ فى «الّصّ والكلاب» سرد الرواية بضمير الغائب، وهذا هو السرد المباشر؛ وهكذا يقوم الراوى بوصف البيئة، والحالات. وقد يُجرى الكاتب الكلام على لسان البطل، ويتحدث إلى النفس حيناً، ويخاطب الأشخاص ثم لا يلبث أن يتحدث بضمير المتكلم، ثم بضمير المخاطب حين يتخيل شخصاً كأنما يحاوره.

ولا يترك نجيب محفوظ الحوار فيها إذ إنه جزء هام من الأسلوب التعبيري فى القصة، وذلك من أهم الوسائل التى يعتمد عليها الكاتب فى رسم الشخصيات إذ تتصل شخصيات القصة بعضها ببعض الآخر اتصالاً صريحاً مباشراً.

لغة نجيب محفوظ وأسلوبه

«إنّ نجيب محفوظ الروائى يستخدم أحدث أساليب التكنيك الروائى فى العالم، ففى رواياته نجد تيار الوعى، والتداعى، والفلاش باك، والمونولوج، والضمائر المختلفة» (عطية، ١٩٧٧ م: ١٥٩-١٦٠). خاصة فى الروايات التى صدرت فى الستينات، ومنها «اللص والكلاب»، ويبرز فى هذه القصة بعض ألوان تيار الوعى كاستخدام سائد فيها. ولغة نجيب محفوظ فى الكتابة اللغة الفصحى، ويلتزمها، وبعض الأحيان يستخدم العامية بين الألفاظ الفصحى، لإضفاء الروح المصرية على أجواء الرواية.

الحبكة

فى الحقيقة الحبكة هى «سرد حوادث القصة أو الرواية مع تركيز الاهتمام على الأسباب» (الحمدانى، ١٩٩٠ م: ١٥) ويتحدث الناقد الإنجليزى /م. فورستر عنها قائلاً: «إذا أردنا أن نعرفها للقرّاء، نجد أنّ الحبكة مثل القصة تعتبر رواية الأحداث المتتابعة التى رتبت على حسب توالى الزمن، ودوّنت على أساس الروابط العليّة» (بارسى پور، ١٣٧٨ ش: ٢١). فعلى أساس هذه التعاريف يمكن الإتيان بنموذجٍ من سير تسلسل الأحداث فى «اللص والكلاب» كحبكة فنية فى الرواية هكذا:

البداية/ السرقة من بيت الطلبة/ السرقة فى عطفة الصيرفى/ إلقاء سعيد فى السجن / طلاق نبوية/ الحرية من السجن/ إنكار سناء/ قتل شعبان حسين/ قتل بواب رؤوف علوان / مطاردة البوليس/ انمحاق نور/ محاصرة البوليس فى المقبرة/ الموت بالمشنقة/ النهاية. ويلاحظ كلّ الأحداث تدور حول سعيد مهران، وفاعل الأحداث إما هو سعيد أو آثار الأحداث تعود إليه.

المجتمع المصرى فى اللصّ والكلاب

إنّ الخلفية الروائية لرواية «الّصّ والكلاب» هى المجتمع المصرى فى نهاية الخمسينات أو أوائل الستينات حينما كان نظام الملكى فى مصر يلفظ آخر أنفاسه، وأعلنت الجمهورية فيها لكنها مع الأسف واجهت الخيانة. إنّ المجتمع الذى صورّه نجيب محفوظ فى «الّصّ والكلاب» مع أشخاصه وأحداثه، هو مجتمعٌ مفعم بالعدالة المغمورة، وبالعديد من الفقراء، والذين يعيشون بالضياع، المجتمع الذى فيه ضحايا الفقر كثيرة ممن يلجأون من الفقر، واليأس إلى البغاء، وبيع الجسد للبقاء، والعيش، أمثال شخصية نور فى القصة. والحكومة فيه هى الحكومة التى تساعد الخائن، والمجرم، وتدعّ الأمور للمحكمة التى لا يصدرُ الحكم فيها إلاّ لصالح المجرم، وليس الحاكم عادلاً لقدرته، ولا يساعد الجماهير الذين يعتبرون مجرمين فى رأى الحكومة، والقانون.

الدين

إنّ الدين، والاشتراكية من الاهتمامات الجوهرية عند نجيب محفوظ، وهو يعتقد: «أنّ القوتين تتنازعان الإنسان، والإنسان لا يملك أن يتجاهلهما» (محفوظ، ٢٠٠٦ م: ١٤٧).
تطرح قضية الدين، والعقيدة فى «الّصّ والكلاب» من خلال العلاقة بين سعيد مهران، والشيخ على الجنيدى الذى يمثل جانب الإيمان فى نفس سعيد مهران، والفكرة الدينية، والإيمان؛ فى حين إنها كانت بعيدة عن عقل سعيد مهران. ينظر نجيب محفوظ إلى الدين فى «الّصّ والكلاب» كعامل لا يتمكّن من حل المشاكل، وحتى الفساد يمكن أن ينفذ إليه؛ ويلاحظ هذا الرأى من خلال حلم شخصية سعيد مهران، وأراد أن يقول نجيب محفوظ من خلاله، حتى الأوغاد ينفذون إلى الدين، ويؤثرون على رجال الدين، والفساد ينفذ إليهم.

المرأة

إنّ قضية المرأة من الطبقة المتوسطة الشعبية، هى من القضايا التى يعالجها نجيب محفوظ دائماً، والمرأة الشعبية محصورة دائماً فى ثلاثة نماذج من الشخصيات النسائية: خادمة، أو عالمة، أو مومس، وتشغل المرأة المومس التى تنتمى إلى الطبقة الشعبية حيزاً هاماً فى بعض روايات نجيب محفوظ (راجع: العشماوى، ٢٠٠٥ م: ١١١) ويريد نجيب محفوظ

أن يشير من خلالها إلى انحرافهن، وفي الواقع يرجع انحرافهن إلى الأسباب، والظروف الاجتماعية، وإنّ الغالبية منهن يرتكبن الإثم بسبب الفقر بسبب المجتمع. يقدّم نجيب محفوظ في «اللصّ والكلاب» نموذجين للمرأة المصرية، هما نبوية زوجة سعيد مهران، ونور فتاة الليل التي كانت تحب سعيد مهران.

كانت نبوية سيدة محترمة، ومن الخادمت التي تعمل في بيوت الأغنياء، لكنها بعد زواجها، وإلقاء زوجها في السجن خانته، وتزوجت من صديق زوجها، ووطئت كلّ الأحاسيس، والحب بينهم بسبب الانطلاق من الصعوبات الجديدة في الحياة.

أما نور أو شلبية، فهي كانت ابنة خادم كان يعمل عند العمدة في قرية البلينا في أيام طفولتها، أما بسبب الفقر، والظروف تركت القرية، واختارت المدينة للوصول إلى الرغد، لكنها تحولت إلى مومس. في حين أنها كانت منحرفة، لكنها كانت فاضلة، وذات قلب صاف في جوهرها، وبسببها أعطى نجيب محفوظ اسماً جميلاً لها (نور) مصداقاً عليها.

إذ وقرت لسعيد مهران ظروفًا مناسبة لإقامته، وللوصول إلى نياته، وأصبحت الشعاع الوحيد الذي ينير ظلمات اليأس في حياة سعيد مهران.

أما شخصية نور فهي النقيض لشخصية نبوية، ولقد أراد نجيب محفوظ أن يبرز من خلالها الفرق بين النساء الفاضلات، والمحترمات، وغير المحترمات في نظر المجتمع. وهو يستعمل المومس في رواياته ليوضّح للقارئ بشكل مباشر فساد أناس، المفروض فيهم عدم الفساد، وعلى أساس آراء الأديب الكبير نجيب محفوظ يفطن إلى دور المومس بين الشخصيات النسائية اللاتي يهتم بها نجيب محفوظ، واهتمامه بها له لون سياسي.

نتيجة البحث

بصفة عامة إنّ الروائي أو كاتب القصة، يتطور في خلق أثره تحت منهجه الخاص الذي يسمى بالأسلوب، وبعناصر مختلفة تحت عناوين: الشخصية، والحدث، والمكان، والزمان، والسرد، والحوار؛ ويقدم روايةً أو قصةً تهدف إلى فكرة معينة.

وطعن نجيب محفوظ من خلال «اللصّ والكلاب» في سلوك الحكام، والزعماء المصريين بصورة غير مباشرة، وبصورة رمزية، وأشار إلى مضامين الدين، والمرأة، والمجتمع، كما عبر عن عيوب الحكام حتى يعلن من خلالها أنّ النظام في مصر ليس نظاماً جمهورياً.

وما يجذب القارئ فى «الّصّ والكلاب»، فهو رمزها الذى يستتر فى مضمون الرواية، وهذا الاتجاه من اتجاهات نجيب محفوظ فى المرحلة الثالثة من تطوره الروائى.

المصادر والمراجع

- أحمد القضاة، محمد. ٢٠٠٠ م، التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ، الطبعة الأولى، لا ب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- پارسی پور، کامران، ١٣٧٨ ش . ساختار عناصر داستان، تهران: سازمان تبلیغات اسلامی.
- عثمان، بدری. لا تا، بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، لبنان: دارالحدائث للطباعة والنشر والتوزيع.
- العشماوی، فوزية. ٢٠٠٥ م، المرأة في أدب نجيب محفوظ، لا ب: مكتبة الأسرة.
- لحمدانی، حمید. ١٩٩٠ م، بنية النص السردي، بيروت: دارالبيضاء.
- محفوظ، نجيب. ١٩٧٣ م، اللصّ والكلاب، الطبعة السادسة، القاهرة: مكتبة مصر.
- محفوظ، نجيب. ٢٠٠٦ م، أتحدث إليكم، بيروت: دارالعودة.
- محمد عطية، أحمد. ١٩٧٧ م، مع نجيب محفوظ، بيروت: دارالجيل.
- مريدن، عزيزة. ١٩٧٩ م، القصة والرواية، دمشق: دارالفكر العربي.
- ميرصادقی، جمال. ١٣٨٠ ش، عناصر داستان، تهران: انتشارات سخن.

المقالات

- بشیری، اکبر. ١٣٨٨ ش، «نجيب محفوظ؛ وقفة في حياته وأدبه»، فصلية دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد في جيرفت، السنة ١، العدد ١، صص ٣٧-٤٨.